الباب الثالث

ضحى القومية العربية

١ — القومية العربية فى العصور الوسطى

فى العصر الأموى نشب صراع عنيف بين القومية العربيـة و يمثلها الأمويون ، والقومية الفارسية و يمثلها الموالى الفرس . فقد كانت الدولة الأموية دولة عربية صميمة اعتمدت على العناصر الحربية فى الحـكم والإدارة ، وحرمت الموالى ـ المسلمين من غـير العرب ـ من حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولذا كره الموالى الحـكم الأموى وسعوا جاهدين فى إسقاط الدولة الأموية . ولما كان الموالى لا يستطيعون أن يدعوا لهم حقّا فى الخلافة ، فقد كانت الخلافة فى ذلك الوقت حقا للعرب عامة ولقريش خاصة ، فقد بحثوا عن بيت عربى قرشى يستطيعون أن ينقلوا إليه حق الخلافة من البيت الأموى . وأخيراً قرّ رأيهم على أن يحلّ البيت الهاشمى مكان البيت الأموى ، لأن الهاشميين عرب ، وذوى قربى الرسول صلى الله عليـه وسلم ، و ينظر المسلمون والعرب إليهم أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة وقد اغتصب الأمويون منهم هـذا الحق . ورأى الموالى أن المناداة بانتقال الخلافة إلى الهاشميين يصبغ حركتهم السياسية والقومية بصبغة دينية و يضمن إقبال الناس على تأييدها .

كان هدف الموالى الحقيقى القضاء على السيادة العربيـة ، و إعادة المجد

الفارسى الزائل ، وإقامة دولة فارسيّة فى مظهرها وحقيقتها . وأدرك الموالى أن الهاشميين حينما يصلون إلى الحكم بمساعدتهم ،فسيكون ظاهر الحكم للهاشميين وباطنه للفرس ، فيتولى الموالى الفرس المناصب الكبرى ، ويديرون دفة الدولة تاركين للهاشميين أبهة الخلافةومظهرها الخارجى . وأدرك نصر بن سيّار الوالى الأموى العربى فى خراسان نوايا الموالى الفرس ، فأسرع يحذّر العرب ، ويدعوهم إلى ترك الانقسام والعصبية القبلية التى كانت نيرانهـا قد تأججت بين النزارية واليمانية ، وصاغ تحذيره فى عدة أبيات جاء فى ختامها :

فمن يكن سائلا عن أصْلِ دينهمُ فإن دينهُمُ : أن تقتـل العرب

وخُدع الهاشميون بوعود الموالى الخلّابة ، وأعمتهم شهوة الحكم وبريق الخلافة عن إدراك خطر الاعتماد على القومية الفارسية ، ولم يدركوا أنهم حين يحاربون الدولة الأموية فهم يحاربون فى الوقت ذاته (القومية العربيـة) ، فقد كان الأمويون قوميين عربا تماما . فقد بدأ الهاشميون العباسيون دعوتهم فى خراسان مركز القومية الفارسية ، واعتمدوا على دعاة من الفرس . كتب إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم الخراسانى : « إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم بالعربية إلا قتلته فافعل . . . » . بل إن أحـد الدّعاة العرب ، وهو قحطبة الطائى ، تناسى عروبته فخطب فى أهل خراسان يحقّر العرب ويعظم الفرس .

تكاتف الهاشميون والموالى الفرس وأسقطوا الدولة الأموية العربيـة ،

وقامت دولة عباسية تعتمد على العناصر الفارسية ، فكان هذا هزيمة للقومية العربية وانتصارا للقومية الفارسية ، ولكن إلى حين. اعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس عليهم ، فقد كانوا فى كثير من المناسبات يكيلون المديح لهم ويقرّون بجميلهم . فكان أبو جعفر المنصور يقول ، « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » ، وأوصى المنصور ابنه فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك . . . » . وهناك كثير من النصوص يعترف فيها العباسيون بفضل الفرس ، ولذا وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى رد هذا الجميل ، فأسلموا إليهم زمام الأمور ، وأفسحوا أمامهم المجال ، فبعد أن كانت المناصب الكبيرة زمن الأمويين مقصورة على العرب وكان الموالى بعيدين عنها أصبح منهم الولاة والوزراء . فيقول السيوطى فى كتابه (تاريخ الخلفاء) : « إن المنصور أوّل من استعمل مواليه على الأعمال وقدّمهم على العرب. وكثر ذلك حتى زالت رياسة العرب وقيادتها » .

تولى الموالى الوزارة ، وهى أرقى مناصب الدولة ، فتولاها أبو سلمة الخلال ، ثم خالد بن برمك جدّ البرامكة وغيرهما . وأسند هارون الرشيد الوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكى وفوّضه تفويضا مطلقا فقال : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى » . وبلغت

أسرة البرامكة درجة من المجد والرفعة يتضاءل دونها مجد الخليفة ورفعته . فقد عاشوا فى نعيم وترف ونافسوا الخليفة فى مظاهر العظمة والأبهة . وأصبح الأدباء والكتّاب من الموالى يعبّرون عن آمالهم وأمانيهم ، ويفتخرون بقوميتهم وجنسيتهم فى جو طليق بعيد عن القسوة والاضطهاد الذى كان يحيطهم به الأمويون ، مستندين على النفوذ الكبير الذى أصبح للعناصر الفارسية فى العصر العباسى .

غضب العرب لانتصار القومية الفارسية على قوميتهم العربية ، وبدأ صراع عنيف بين القوميتين . ونتج عن هذا الصراع ظهور (الشعوبية) أو بعبارة أخرى (التعصب للقومية) . ولفظ الشعوبية مأخوذ من (الشعوب) جمع (شعب) وهو (جيل الناس) ، وهو أوسع من القبيلة وأشمل . وذهب بعض المؤرخين أنها مأخوذة من الشعوب فى قوله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وقال بعض المؤرخين : إن المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل قبائل العرب . ويسمى الجاحظ وابن عبد ربه الطائفة المعادية للعرب بالشعوبية . ويعرّف كرد على (الشعوبية) بأنهم قوم متعصبون على العرب يفضلون عليهم العجم .

الشعوبية أو التعصب للقومية ، هى تعصب كل شعب لشعبه ، وكل قوم لقوميتهم ، وقد ظهرت الشعوبية فى العصر العباسى الأول وإن كانت جذورها وأصولها فى العصر الأموى ، إذ أن الشعوبية فى العصر العباسى هى حلقة من

حلقات سلسلة الصراع بين العرب والموالى . وبعد أن كان الموالى فى العصر الأموى يكافحون من أجل مساواتهم بالعرب ، أصبحوا فى العصر العباسى يرون أنهم أفضل من العرب وأرقى منهم حضارة ونظما . فقد كان الأمويون يعتمدون على العنصر العربى ويحتقرون الموالى ويحرمونهم من المناصب والوظائف ، ولذا كافح الموالى للوصول إلى مرتبة العرب . ثم قامت الدولة العباسية على أكتاف هؤلاء الموالى وسيطروا على شئون الدولة العباسية فعرفوا قدرهم وشعروا بأهميتهم فتكبروا وتجبروا ، واعتبروا أنفسهم أرفع من العرب شأنا ومنزلة .

ولكن ، هل تناسى الخلفاء العباسيون قوميتهم العربية ؟ كان الخلفاء العباسيون عربا هاشميين من قبل الأب ، وكانوا يفخرون بذلك ، وهم وإن اعترفوا بفضل الفرس فلم ينسوا عروبتهم ، وكان الخلفاء إذا شعروا بطغيان الفرس على نفوذهم نكّلوا بهم ، كما فعل المنصور بأبى مسلم الخراسانى ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . فالفرس فى العصر العباسى الأول كان لهم نفوذ كبير ، ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب . كانت المناصب الكبرى حقا فى أيدى الفرس ، ولكن كان الخليفة عربيا هاشميا ، وكان له قواد من العرب ، كما له قواد من الفرس ، وكان له ولاة من العرب ، وولاة من الفرس . كل هذا يجعلنا نقول : إن الدولة العباسية جعلت كفة الفرس راجحة ، ولكن العباسيين لم يتخلوا عن القومية العربية ، وهذا جعل الصراع مستمرا فى العصر العباسى .

زاد نفوذ الموالى وخاصة الفرس، فامتلأت قصور الخلفاء بالخدم والأعوان من الموالى ، وأصبحت المناصب الكبرى كالوزارة مقصورة على الفرس ، وانتشرت العادات والتقاليد الفارسية ، واحتفل العباسيون بالأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان ، كما انتشرت الثقافة الفارسية . ولكن العرب لم يسكتوا على نفوذ الموالى المتزايد ، بل قاوموه وحاولوا الحدّ منه . واتخذ صراع العرب والموالى أشكالا مختلفة . أبرزها الدس عند الخليفة ، ولاشك أنه كان من عوامل نكبة البرامكة دس الحرب العربى للبراسكة عند الرشيد وتحريضه عليهم . كما كان بعض الفرس الذين يتولون المناصب الكبرى يستغلون ثقة الخليفة فيهم فينكلون بالعرب مثل الأفشين قائد جيوش المعتصم وكان أعجميا يكره العرب . ومن مظاهر هذا الصراع ، الصراع الأدبى ، فتهاجوا بالأشعار، وافتخر كل فريق بقوميّته .

انتصر الموالى الفرس على العرب سياسيا وإداريا ، ولكن العرب انتصروا قوميا ودينيا ولغويا . تولى الموالى المناصب السياسية والإدارية الكبرى وسيطروا على الحكومة العباسية ، ولكن الإسلام انتصر على ديانات الموالى القديمة وخاصة المجوسية ، كما أن اللغة العربية ـ واللغة أساس القومية ـ استطاعت أن تقف دائما على قدميها، وفشلت مساعى الموالى الفرس لإحلال اللغة الفارسية مكان اللغة العربية ، بل أقبل الموالى على تعلم اللغة العربية وإجادتها .

تجلت الشعوبية فى ثلاث نزعات ومظاهر :

أولا : حاول الشعوبيون أعداء القومية العربية الحط من شأن العرب ، وتفضيل سائر القوميات .

ثانيا : نادى أنصار القومية العربية أن الأمة العربية خير الأمم على وجه الإطلاق .

ثالثا : وقف البعض موقفا وسطا، وحاولوا أن يحفظوا التوازن بين القوميات دون تفضيل قومية على أخرى ، ولا أمة على أمة .

أولا : نادى الشعوبيون من غير العرب ، أن العرب لا يمتازون كأمة عن غيرهم بشيء . فإن كان الرومان يفخرون بحضارتهم القديمة ومدنهم الخالدة ، وإن كانت الهند تفخر بحكمتها وطبها وأنهارها وخيراتها ، وإن كانت الصين تفخر بصناعتها وفنونها الجميلة ، فبماذا تفخر أمة العرب ، وبلادها قاحلة ، يعيشون فى بداوة وتأخر ، وكانوا فى جاهليتهم يئدون بناتهم ، ويتحاربون ويغزون ويسلبون . وتساءل الشعوبيون : أين مُلك العرب من مُلك الفراعنة والأكاسرة والقياصرة ؟ إن كانوا يفخرون بالنبوة فجميع الأنبياء عدا أربعة ليسوا عربا (هود ، صالح ، اسماعيل ، محمد) ، وإن كانوا يفخرون بالشعر فقد كان لليونان والرومان شعر عظيم . وإن فخر العرب بالإسلام ، فليس الإسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس جميعا ، بل إن العرب كانوا ألدّ الناس مقاومة للرسول والإسلام . بل اعتبر الشعوبيون أن الفرس أخطب من العرب وأشجع منهم .

بدأ دعاة الشعوبيـة دعوتهم مستندين على تعاليم الإسلام نفسه ، فهو لا يفضل قوما على قوم ، فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم . ثم تدرجوا من ذلك إلى تحقير العرب ، وتفضيل سائر الأمم والقوميات عليهم ، وساعدهم على ذلك سيطرة الفرس على الحكم فى الدولة العباسية .

كانت الشعوبية نزعة أكثر منها عقيدة ، فهى نوع من الديموقراطيـة تحارب أرستقراطية العرب . ومما قوّى الشعوبيين اعتمادهم على النزعة الوطنية والقومية بجانب العصبية الدينية . فقد فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب وقضوا على الدول والقوميات ، وأهل هذه البلاد ليسوا عربا ، وكان كثير منهم يحنّون إلى قوميّتهم واستقلالهم ، وكان بعضهم يحقدون على العرب لتغلبهم عليهم وفرضهم قوميتهم العربيـة ، فاستغلّ الشعوبيون هذه النزعة القومية . كما كان بعض أهالى هذه البلاد المفتوحة قد اعتنقوا الإسلام عن رهبة لا عن رغبة ، كما احتفظ بعضهم بديانتهم الأصلية ، ولا شك أنهم حقدوا على العرب إذ غلبوهم وفرضوا عليهم دينهم الإسلامى ، ولذا جنح الشعوبيون إلى الزندقة ليحاربوا الإسلام .

لم يكن الشعوبيون حزبا واحدا منظما متحدا . بل كان الشعوبيون أجناسا مختلفة وشعوبا متفرقة ، منهم ، الفرس ، ومنهم قبط مصر ، وبربر المغرب ، وروم الشام ، وغيرهم . وصُبغت شعوبية كل جنس من هؤلاء بصبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال ، واتخذت فى بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد .

بدأ الشعوبيون أو القوميون الفرس يضعون الكتب فى مناقب العجم ، ووضع بعضهم كتبا فى ذم العرب وذكر مثالبهم ، واختلقوا كثيرا من القصص التى تشين العرب وادّعوا أنها حقيقيّة ، بل وضعوا بعض الأحاديث النبوية فى فضل الفرس وأسندوها إلى الصحابة والتابعين وردّ العرب على الفرس ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة فى تفضيل العرب . واختلق الشعوبيون أحاديث نسبوها إلى علىّ بن أبى طالب ، واستغلّ الفرس سلمان الفارسى استغلالا عظيما ، فوصفوه بالزهد والحكمة والعلم وجعلوه فى مقدمة صحابة الرسول . بل غيّر الشعوبيون فى المسائل الفقهية فأدخلوا فيها مايتفق مع أهوائهم وميولهم ، وخاصة فى باب الكفاءة فى الزواج ، كما بدّل الشعوبيون الفرس فى التاريخ ، فنسبوا إلى ملوكهم الحكمة والعظمة والقوة ، وبالغوا فى ذلك كثيرا ، وصوّروا الفرس بأنهم أرقى أمة خلقت وزعموا أن الفرس من ولد إسحق بن إبراهيم ، والعرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وإسحاق ابن حرّة هى سارّة ، وإسماعيل بن أمة هى هاجر فالفرس أفضل من العرب لأنهم أبناء الأحرار ، واستعان الشعوبيون بالشعراء والأدباء فى تبيان فضل غير العرب على العرب ومن أبرز الشعراء الأعاجم الشعوبيين بشار بن برد ، والحزيمى ، والمتوكلى ، وديك الجن ، وكان الشاعر الأخير يقول : ماللعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منّا قُتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ جمعنا الدين

ثانياً : ذهب العرب إلى أنهم خير الأمم ، إذ قد عاشوا حياتهم متمتعين

باستقلالهم ، فلم تستطع دولتا الفرس والروم أن تسيطرا على الحجاز فى الجاهلية رغم سيطرتهم على البلاد المجاورة فى العراق والشام ومصر ، بل إن الفرس تقربوا إلى عرب الحيرة كما تقرب الروم إلى عرب الغساسنة ثم ظهر الإسلام فتمكن العرب من القضاء على الدولة الفارسية ، وانتزعوا من الروم الشام ومصر كما نادى العرب بأنهم أحسن الأمم أخلاقا وصفات فهم أكرم الناس للضيفان ، وأنجدهم للمظلوم ، هذا إلى فصاحتهم ، وبلاغتهم ، وسرعة بديهتهم ، والعرب أحفظ الناس لأنسابهم وقد أكرم الله العرب فأنزل الإسلام ومحمد بينهم ، والعرب هم الناشرون للإسلام الحامون لدعوته ، وهم الذين خلصوا سائر الأمم من كفرهم وإلحادهم وهدوهم إلى الدين القويم .

ثالثا : وقفت بعض الفئات موقفا وسطا من هذا الصراع ، فذهبوا إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم ، ولا أية أمة أفضل من أية أمة ، والناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد. وإنما التفاضل بين الأفراد لا بين الأمم .وليس تفاضل الناس فيما بينهم بآبائهم وأحسابهم ولكن بأفعالهم وأخلاقهم . وكان لسان حال هذه الفئة الآية الكريمة (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، والحديث الشريف (ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى) . وكان المأمون الخليفة العباسى، من هؤلاء المعتدلين ، فكان يقول: (الشرف نسب فشريف العرب أولى بشريف العجم من وضيع العجم بشريفهم، وشريف العجم أولى بشريف العرب من وضيع العرب بشريفهم).

ما موقف الخلفاء العباسيين من الشعوبية ؟

تعصب الخلفاء العباسيون للإسلام ، ولم يتعصبوا كثيرا للقومية العربية ، فحاربوا الزندقة ، ولم يحاربوا القومية الفارسية ولا العصبية والشعوبية الأعجمية . فقد كان معظم الخلفاء العباسيين من أولاد جوارى غير عربيات . وكان غير العرب يتولون المناصب الكبرى فى الدولة وقد سيطروا على دواوينها ، فلم يتدخل الخلفاء فى صراع الحزب العربى مع الحزب الفارسى . وضاق المعتصم بالعرب والفرس فاستعان بالأتراك وظن أنهم بعيدون عن العصبية والشعوبية ، ولكن سرعان مازاد عددهم وبدأوا يلعبون دورهم فى ميدان الشعوبية ، وبدأت القومية التركية صراعا عنيفا مع القومية الفارسية من جهة والقومية العربية من جهة أخرى ، واضطرت القوميتان العربية والفارسية أن تتحدا أحيانا للوقوف فى وجه طغيان القومية التركية .

كان الخليفة العباسى المعتصم الذى تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ أول من أتاح الفرصة للأتراك ليستحوذوا على السلطة والسيطرة . فقد استقدم سنة ٢٢٠ هـ أعدادا ضخمة من الأتراك ، وزاد عددهم فى بغداد حتى ضاق بهم أهلها . وبدأ دور جديد من العصبية القومية ، فقد كان النزاع قبل بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والأتراك . وكان نفوذ العرب قد ضعف كثيرا ، فاتجه الأتراك إلى إضعاف الفرس ، وبدأت الدولة العباسية تصطبغ بالصفة التركية . واستمر الخليفة الواثق ، الذى خلف المعتصم ، فى الاعتماد على الأتراك ،

بل نصّب اشناس التركى سنة ٢٢٨ هـ سلطانا ، فكان أول خليفة يستخلف سلطانا. وفى سنة ٢٣٢هـ تولى الخليفة المتوكل فبدأ عهد جديد نسميه فى التاريخ الإسلامى « عصر نفوذ الأتراك » .

ضاق المتوكل بنفوذ الأتراك ، ففكر فى أن ينقل عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى دمشق ، وفعلا انتقل إليها سنة ٢٤٣ هـ ، وأراد إحياء القومية العربية والاعتماد على العنصر العربى ، ولكن الأتراك اضطروه إلى العودة إلى العراق بعد شهور ثلاث ، وسرعان مادبر الأتراك مؤامرة قتل فيها المتوكل واشترك فيها ابنه (المنتصر) الذى خلف أباه فى الخلافة سنة ٢٤٧ هـ . كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فكل من كان قبله مات حتف أنفه . وكان لمقتل المتوكل معناه ومغزاه ، فهذا إنذار لكل من يتولى الخلافة بأن يذعن إذعانا تامّا للأتراك ، وأن كل خليفة يناوئ الأتراك مصيره القتل . وأصبح الخلفاء بعد المتوكل ألعوبة فى يد الأتراك ، فلم يعد لهم من سلطان الخلافة إلاّ المظهر مثل الخطبة والعملة .

انتهى عصر نفوذ الأتراك سنة ٣٢٤ هـ ، وبدأ عصر جديد يسمى (عصر إمرة الأمراء) استمر عشر سنوات إلى سنة ٣٣٤ هـ . وقد شهد هذا العصر صراع عدة قوميات من أجل السلطة والنفوذ. فقد شعر الخلفاء بضعفهم ففوضوا أمور الدولة إلى شخصية قوية كانوا يلقبونها بأمير الأمراء . وحاول الفرس والعرب والأتراك أن يستأثروا بهذا المنصب الخطير . وفى سنة ٣٣٤ هـ استطاع

الفرس ، يمثلهم بنو بويه ، السيطرة على دفة الأمور فى الدولة العباسية ، وظلت لهم الكلمة إلى سنة ٣٤٧ هـ ، وعلت فى هذه السنوات راية القومية الفارسية ؛ ولكن القومية التركية لم تعترف بالهزيمة ، فظل السلاجقة الأتراك يناضلون بنى بويه حتى تمكنوا من القضاء على نفوذ البويهيين ، وخضعت الخلافة العباسية من جديد للنفوذ التركى .

ضعفت الدولة العباسية ، نتيجة لصراع القوميات العربية والفارسية والتركية ، ونتج عن ضعف السلطة المركزية أن استقلت أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية ، وانقسمت المملكة الإسلامية إلى مناطق نفوذ للقوميّات المختلفة . . فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثالث وفى القرن الرابع ، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب ، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب ، وبعض قبائل البربر ، والفاطميون وهم عرب . ومصر والشام يحكمها الطولونيون ثم الإخشيديون وهم أتراك ، ثم الفاطميون وهم عرب . وحكم الحمدانيون فى الموصل وحلب وهم عرب . أما بلاد العراق فقد حكمها الأتراك باسم الخليفة العباسى ونازعهم السلطان عليه الحمدانيون وهم عرب ، ثم استولى عليها البويهيون وهم فرس . أما بلاد فارس فقد انقسمت إلى عدة أقسام : الدّكنية فى كردستان وهم عرب ، والصفارية فى فارس وهم فرس ، والسامانية فى فارس وما وراء النهر وهم فرس ، والزّيارية فى جرجان وهم فرس ، والحسنوية فى كردستان وهم أكراد ،

والبويهية فى جنوبى فارس وهم فرس ، والغزنوية بأفغانستان والهند وهم أتراك .

تميزت كل قومية ببعض الصفات ، وطبعت كل إقليم سيطرت عليه بطابعها الخاص. فطابع التركية حب الجندية والفروسية، وكثرة النزاع والخلاف بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد كالبدو فى تعصبهم للقبائل ، واحتقارهم لأهالى البلاد التى يحكمونها ، وانتصارهم لمذهب أهل السنة ، وعدم ميلهم إلى الفلسفة والجدل فى الدين ، وتقريبهم علماء الدين وخاصة علماء الحديث ، وحبهم للأموال وانتزاعها من رعاياهم ومصادرتها من الأثرياء دون الاهتمام باستثمارها.

أما الفرس فطابعهم الظهور والترف، فقد ورثوا حضارة قديمة لها تقاليدها ، ولهم قدرة على تنظيم الحكم ، ومعرفة واسعة بتنمية الثروات ، ولهم عقول مثقفة تتذوق العلم والأدب ، واهتموا بالفلسفة فقد عرفوا قبل إسلامهم كثيرا من المذاهب الدينية . ومال الفرس إلى الترف والنعيم ، وأورثهم اضطهاد الدولة الأموية لهم كراهية للعرب ، فكانوا ينتهزون الفرص للأخذ بالثأر من العرب .

أما العرب فطابعهم الميل إلى البداوة ، وحكم القبيلة ، والفخر بعروبتهم واحتقار الأجناس والقوميات الأخرى ، والزهو بالسيف والقلم ، يحبون القتال والثورات ، أسرع الناس إلى التأقلم والتحضر فإذا تحضروا أسرفوا فى الترف

والنعيم ، أحب شيء إلى العرب الأدب والشعر لا الفلسفة والعلم ولكنهم يستعينون بالعلماء والفلاسفة من الموالى .

ثم جاءت نهاية الدولة العباسية على أيدى المغول (التتار) ، فقد دخل هولاكو (بغداد) معقل القومية العربية ، فدك أعظم ركن للعروبة والإسلام ، وخرّب بغداد مدينة السلام ، وقضى على معالم الحضارة ، وتتابعت غارات المغول على القومية العربية .

دخل هولاكو بغداد فخربها وقتل الخليفة المستعصم وقتل كبار الفقهاء ورجال الدولة ، واستولى على التحف والأموال ، وأحرق قبور الخلفاء وألقى بالكتب التى حوت التراث العربى فى نهر دجلة ، حتى قيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة . فى آخر القرن السابع (٦٩٩ هـ) دخل غازان التترى بلاد الشام فأعمل التخريب والنهب والسلب . وفى أوائل القرن التاسع (٨٠٣ هـ) خرّب مدينة بغداد وذبح كثيرا من أهلها ، وخرّب ثلث دمشق وبعض حلب ، وقضى فيهما على المدارس والجوامع وخزائن الكتب . ثم ارتحل عن دمشق ؛ يحمل منها أصحاب الحرف والصناعات بجانب الأموال والتحف .

وكما تعرضت القومية العربية لأخطار المغول ، تعرضت لأخطار الصليبيين . فقد ادّعى الصليبيون أن المسلمين يتعرّضون للحجاج المسيحيين القاصدين الأماكن المقدسة فى فلسطين فيوقعون بهم الأذى . ولغايات فى النفس جسّم

بعض رجال الدين فى الغرب حوادث الاعتـداء على حجاجهم فى الأرض المقدسة، فأثاروا ضغائن النصارى والأوروبيين على المسلمين والعرب . وحرض البابا أبناء النصرانيـة على حمل الصليب ليفتحوا الأماكن المقدسة ، ومنحهم غفرانا عن كل خطاياهم ، وأحل لهم ما تجترحه أيديهم وجوارحهم ، حاميا بسيادته الروحية عيالهم وأموالهم مدة غيابهم ، فسار بعضهم مدفوعا بالحماسة الدينية ، ومنهم الطامع فى المغانم والأسلاب . وفى أواخر سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) اجتمعت فى القسطنطينية جيوش الصليبيين ، وبعد مصاعب شديدة تقدموا ففتحوا سواحل الشام واستولوا على بيت المقدس ، وارتكبوا كثيرا من المذابح والفظائع . فقد ذكر المؤرخ (ميشو) فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) أن الصليبيين بعد فتحهم مدينة معرة النعمان ـ وكانت من أعظم مدن الشام ـ قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع المختبئين فى السراديب ، وأهلكوا صبرا ما يزيد على مائة ألف إنسان . كما وصف (ميشو) فتح الصليبيين للقدس فقال : تعصّب الصليبيون فى القدس تعصّبا أعمى لم يسبق له نظير ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البيوت والبروج ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ، ويجرونهم فى الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا ، حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح . وفى

طرابلس أحرق الصليبيون (دار الحكمة) وكان بها مائة ألف مجلد .

أراد الله سبحانه وتعالى أن ينقذ الإسلام والقومية العربية ، فظهر القائد العظيم صلاح الدين الأيوبى ، فبدأ زحفه فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وهزم الصليبيين فى حطين ثم طبرية ثم عكا ثم استولى على كثير من مدن الساحل من يافا إلى بيروت ، وتوج نصره بالاستيلاء على بيت المقدس . واستمر صلاح الدين يحاربهم طويلا — مما لا مجال هنا لذكره — حتى وقع صلاح الدين الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا فى سنة ٥٨٨ هـ .

وكما وقعت القومية العربية فى الشرق فى محنة ، لاقت القومية العربية فى الغرب محنة أخرى فقد كان سقوط بلاد الأندلس فى أيدى الأسبان ضربة عنيفة أصابت القومية العربية . فمن هذه البلاد انبعث نور العرب فى غربى أوروبا ، فقد كانت الأندلس معقل القومية العربية فى قارة أوروبا طوال ثمانية قرون وأدرك الاسبان ذلك فعملوا على إبادة العرب حتى إنهم لم يعفوا النساء والأطفال والشيوخ من القتل . كما أخذ الاسبان يعمدون المسلمين من أبناء العرب بالقوة ، مدعين أن العرب كانوا نصارى ، ومن رفض منهم سيق إلى ديوان التحقيق الدينى فأحرق منهم عدد كبير . ورأى الاسبان أن طريقة الإحراق طريقة بطيئة لإبادة الجنس العربى ، ولذا اقترح الكردينال رئيس الأساقفة لتطهير أرض اسبانيا من العنصر العربى أن يقتل بالسيف كل عربى لم يعتنق المسيحية بينما رأى أحد كبار الاسبان ويدعى (بليدا) أن يقتل جميع العرب بدون استثناء ، لأنه من الصعب أن يعرف من اعتنق المسيحية عن إيمان واقتناع ، بينما

من السهل على المولى أن يميز فى الدار الآخرة بين المؤمنين والضالين . ويقول ڤولتير : لما فتحت العرب اسبانيا لم يرغموا قط النصارى الوطنيين على اعتناق الإسلام ، ولمّا استولى الاسبان على غرناطه أراد الكردينال كسيمنس أن يُنصِّر كل العرب ، دفعته إلى ذلك غيرة دينية ، أو طموح إلى إنشاء شعب جديد يخضع لصولته ، وأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به . ويقول سيديليو إن عدد من فقدتهم اسبانيا يبلغ ثلاثة ملايين، ويكمّل لبون فيقول إن من سوء حظ اسبانيا أن هذه الثلاثة ملايين من الرعايا الذين حرمتهم اسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية فى العلم والصناعة .

أباد الاسبانيون فى الأندلس كل أثر للعرب والقومية العربية ، فخرّبوا بيوتهم ، وقضوا على كتب العرب ، فقد أمر الكردينال كسيمنس ـ أعدى أعداء الإسلام والعروبة ـ فى سنة ١٥١١ بإحراق الكتب العربية والمصاحف المخطوطة فى ميادين غرناطة. ثم تولّى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للعرب كما أباد جميع المخطوطات العربية التى حفظت فى خزائن كتب الأسكوريال .

قام العرب بنشر الحضارة فى اسبانيا قرونا طويلة ، ومن اسبانيا انتقلت الحضارة العربية إلى ممالك أوروبا ، فكان جزاء العرب يوم ضعفت سياستهم، أن يقتلوا شرّ قتله ، وتباد آثارهم كل إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ماستفادته اسبانيا من العرب ، ولمّا جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت

صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت اسبانيا بعد مدّة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . فيقول ستانلى لا نبول : إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الاسبان وتأخرهم بعد أن خلت أرضهم من الإسلام . وقال لابريولا : لقد جعل العرب من اسبانيا جنة بديعة ، وكانت متأخرة جدا فى زمن القوط ، وجعل العرب اسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوروبية ، فقضى الفتح الاسبانى على عمل سبعة قرون قضتها اسبانيا فى ظل حضارة العرب .

تحدث بارتولد فى كتابه (تاريخ الحضارة الإسلامية) عن أثر سقوط الأندلس فى القومية العربية ، فقال : (وقد ظهر سقوط غرناطه فى نظر المعاصرين ضربة أصابت العالم الإسلامى كله ، ولم يوجد من ينظر إليه من وجهة القومية العربية) . أن الحادث الأخير الذى يمثل القومية العربية مع النهضة الدينية فى تاريخ الإسلام فى القرون الوسطى ، هو إعادة السلطة الزمنية لخلفاء بغداد . إذ أن أهل بغداد اعتبروا هذا الحادث « نجاة العرب » لا « إعادة سلطة الخلافة » . ولكن الخلفاء لم يجتهدوا فى جمع البلاد التى يتكلم أهلها العربية بتوسيع سلطانهم ، وإنما أرادوا أن يعترف السلاطين بحقوقهم السامية باسم الإسلام . وأما فكرة تأسيس دولة عربية كبيرة فقد فقدت قوتها من قبل أن يهدم المغول الوثنيون عاصمة الخلفاء فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بزمن طويل . وسقوط بغداد ، كان كسقوط نينوى وبابل وروما ، لم يحدث تأثيرا كبيرا .

٢ — العثمانيون والقومية العربية :

نشأت الدولة العثمانية وترعرعت بعيدة عن البلاد العربية ، فلم تحتك بها، ولم تشرع فى الاستيلاء عليها إلّا بعد أن مضى على تأسيسها نحو قرنين من الزمان ، و بعد أن تعاقب على عرشها ثمانية من السلاطين . فقد نشأت السلطنة العثمانية سنة ١٢٩٩ فى مقاطعة صغيرة فى شمال غرب آسيا الصغرى ، ثم بدأت فى التوسع فشملت آسيا الصغرى كلها، وعبرت الدردنيل إلى شمال بحر مرمره . أما السلطان سليم الذى استولى على الشام والحجاز ومصر فكان تاسع السلاطين ، والسلطان سليمان الذى أتم فتح سائر البلاد العربية كان السلطان العاشر .

قبل الفتح العثمانى للعالم العربى كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبيرة : الدولة العثمانية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الصفوية وعاصمتها تبريز ودولة المماليك وعاصمتها القاهرة . وكانت الدولة العثمانية تحكم بلادا واسعة فى البلقان بأوروبا والأناضول . وكانت الدولة الصفوية تحكم شرق الأناضول والعراق و إيران ، أما دولة المماليك فكانت تحكم مصر وسوريا والحجاز .

كانت هناك جامعة إسلامية غير رسمية تجمع هذه الدول الإسلامية الثلاث: العثمانية ، الصفوية ، المماليك . فكان التجار والحجاج ينتقلون بين أقطارها . كما كان السلاطين يتكاتبون باستمرار ، وكان السلاطين العثمانيون يحرصون

تماما على نشر أخبار انتصاراتهم فى مختلف البلاد الإسلامية ، وكلما انتصروا على دولة مسيحيّة ، وكلما فتحوا مدينة فى البلاد الأوروبية كانوا يرسلون وفودا لإبلاغ ذلك إلى ملوك المسلمين . وكانت هذه المكاتبات تجرى باللغة العربية . ونذكر خطابا منها على سبيل المثال ، فقد كان سلطان المماليك فى مصر قد تقدم بشكوى إلى السلطان العثمانى من تعرّض بعض أهل چنوه للتجار المسلمين ، وأجاب السلطان العثمانى بأنه سيتوسط عند أمير چنوه لمنع الاعتداء . وقد اعتبر الملكان أن المملكتين (كروحيْن فى جسد ، وساعدين فى عضد) . وحفظ لنا التاريخ خطابا من السلطان العثمانى السادس مراد الثانى إلى عزيز مصر الملك الأشرف برسباى (٨٣١ هـ ـ ١٤٢٧ م) يبشره بفتح قلعة قرب نهر الدانوب. كما كتب السلطان مراد الثانى إلى عزيز مصر عند فتح سلانيك . وكتب السلطان محمد الثانى إلى عزيز مصر (إينال شاه) يبشره بفتح القسطنطينية ، كما كتب بذلك إلى شريف مكة يبشره بالفتح ، وطلب منه الدعاء ، وأرسل إليه بهدايا من الغنائم .

إن هذه الرسائل بين الحكام المسلمين تبيّن بوضوح تام « النزعة الدينيّة الشديدة » التى كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية وفتوحاتها ، كما تعطى فكرة واضحة عن اهتمام السلاطين العثمانيين بإذاعة أخبار انتصاراتهم على (الكفّار) فى مختلف الأقطار الإسلامية عامة ، والبلاد العربية خاصة . ولا شك أن هذا كان يكسب الدولة العثمانية مكانة معنوية رفيعة ، ولا شك أن هذه المكانة

المعنوية ساعدت مساعدة كبيرة على الفتح العثمانى للبلاد العربيـة من جهة ، ودوام الحكم العثمانى لهذه البلاد مدة طويلة و بدون عناء من جهة أخرى .

إن الفتح العثمانى للعالم العربى ـ إجمالا ـ كان سهلا ميسورا . وساعد على ذلك تلك الجامعة الإسلاميـة التى كانت تجمع الدول الإسلامية الثلاثة . العثمانيـة ، الصفوية ، المماليك . وهى فى الحقيقة دول إسلامية وليست دولا عربية . بل إن الدين لعب الدور الأول فى الفتح العثمانى للعالم العربى .

قامت الدولة الصفوية فى إيران (فارس) على أساس دينى قومى . وقد وطّد الشاه اسماعيل صفوى (١٥٠٠ـ١٥٢٤م) المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، العزم على أن يقيم فى إيران دولة قومية مستقلة يدين أهلها بالتشيع ، ثم يعمل على أن يصبح هـذا المذهب هو الغالب فى العـالم الإسلامى . وابتدأ الشاه اسماعيل بالعراق فاستطاع فتح بغداد سنة ١٥٠٨ م ، و بدأ فى نشر مذهب الشيعة بالقوة ، فاستصرخ العراقيون القوى الإسلامية الأخرى لإنقاذهم من عسف الصفويين .

أما العثمانيون فقد كانوا قد أقاموا دولتهم فى الأناضول والبلقـان على أنقاض الإمارات التركيةوأملاك الدولة البيزنطية . وظل العثمانيون حتى أوائل القرن ١٦ متجهين إلى الفتح والتوسع فىالبلقان فى طريقهم إلى وسط أوروبا ، أما فى الشرق فلم يكن لهم أى مطمع إلّا فى تأمين حدودهم الممتدّة على مشارف إيران والعراق والشام ، حتى تولى الشاه اسماعيل الصفوى و بدأ فى نشر التشيع

خارج إيران ، فبدأ اهتمام العثمانيين بالعالم العربى والإسلامى ، فبدأ اصطدامهم بالدولة الإيرانية الصفوية ، ثم استيلاء العثمانيين على العالم العربى .

هزم السلطان سليم الأول الإيرانيين فى موقعة چالديران سنة ١٥١٤ ، ودخل عاصمتهم تبريز ، ولكنه آثر الانسحاب لأنه خاف أن يقع بين عدوّين ، الصفويين فى الشرق ، والمماليك فى الشام ومصر من الغرب . كما كانت خطوط المواصلات طويلة والشتاء على الأبواب ، ولذا آثر سليم الانسحاب ورأى أن يبدأ بالقضاء على دولة المماليك ثم يتفرغ للقضاء على الدولة الصفوية .

وكان هناك سبب آخر شجع السلطان سليم على القضاء على دولة المماليك ، ويبيّن هذا العامل الشعور بالجامعة الإسلامية بوضوح . فقد كانت دولة المماليك الإسلامية فى صراع عنيف مع دولة البرتغال المسيحية . وبدأ الصراع منذ أن حوّل البرتغال التجارة من الطريق المار بمصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وكانت مصر أكثر الدول إفادة من طرق التجارة القديمة ولذا كان أشدها تأثرا بالتحول التجارى الجديد الذى اتخذ لونا صليبيا صارخا حين عمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية فى الهند ، وسعوا إلى النفوذ إلى البحر الأحمر للنزول فى الحجاز وتحطيم الأماكن المقدسة الإسلامية ، بالتحالف مع دولة الحبشة المسيحية ، ونهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية ، فأنفذوا الأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعثوا بالجيوش لفتح اليمن تأمينا لها من الخطر البرتغالى . ولكن جهود مصر لم تقدّر لها

النجاح ، ووطد البرتغاليون أقدامهم فى قواعدهم الحصينة وأمعنوا فى احتكار التجارة الشرقية والضغط على القوى الإسلامية والعربية فى البحار الشرقية .

لاشك أن هذا الخطر البرتغالى ، وتهديدهم الأماكن المقدسة فى الحجاز كان يثير غضب ومخاوف السلطان العثمانى سليم الأول بصفته رجلا مسلما ، وسلطان أقوى دولة إسلامية وقتئذ . وشعر سليم أن دولة المماليك قد أصبحت فى حالة من الضعف الشديد مما لايسمح لها بصدّ البرتغال ، ولذا رأى أن يقضى على هذه الدولة التى لاتصلح للبقاء ثم يتولى هو تخليص العالم الإسلامى من خطر تحالف دولتى البرتغال والحبشة المسيحيتين .

هزم السلطان العثمانى سليم الأول السلطان المملوكى قنصوه الغورى فى موقعة (مرج دابق) شمالى حلب سنة ١٥١٦ ، واستولى على بلاد الشام جميعها ، ثم دخل القاهرة سنة ١٥١٧ ، وأصبحت مصر بعد الشام ولايتين عثمانيتين ، وانتقلت الخلافة الإسلامية إلى آل عثمان . وبدأ العثمانيون يعملون على التخلص من خطر البرتغاليين ، واقتضى هذا أن يبسط العثمانيون سلطانهم فى البحر الأحمر بجانبه الأسيوى بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الإفريقى بضم الإمارات العربية فى سواكن ومصوع وهرر تحت سلطانها ومحاولة إخضاع الحبشة . ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية تخرج لمقاتلة البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج الفارسى لفك الحصار الذى ضربه البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين فى تلك الأصقاع .

خضعت بلاد الحجاز للعثمانيين سلميًا دون حرب أو قتال ، ولا شك أن (الجامعة الإسلامية) كانت الدافع الأول . فقد كان أشراف مكة يخضعون لدولة المماليك الإسلامية ، وما أن أدركوا أن هذه الدولة قد زالت من الوجود حتى أرسل شريف مكة ابنه إلى السلطان سليم بالقاهرة يحمل إليه مفاتيح الكعبة وأعلن الدخول فى طاعته ، فقبل سليم ولاءه وثبّته على إمارته .

أما اليمن فقد كانت أشدّ البلاد العربية والإسلامية مقاومة للحكم العثمانى ، رغم أن اليمنيين كانوا من أكثر العرب مقاساة من الضغط البرتغالى الذى كان جاثما بالقرب منهم عند مدخل البحر الأحمر ، وقد حاول البرتغاليون أكثر من مرة انتزاع عدن ، الثغر اليمنى الحصين . ولعب اختلاف المذهب الدينى الدور الأول فى هذه المقاومة . فقد كان الحكم فى اليمن للأئمة الزيديين وهم من الشيعة ، بينما العثمانيون سنيون متعصبون .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى تمّ فتح اليمن ، والعراق ، وعدن ، وانتزع مسقط من البرتغاليين ، ونفذ العثمانيون إلى الخليج الفارسى حتى وصلوا إلى البصرة ، وسيطروا على الإمارات العربية على الخليج الفارسى كعمان والإحساء والبحرين والكويت .

وكان فتح العثمانيين لبلاد المغرب خير دليل على شعور أهل المغرب بالجامعة الإسلامية ، فقد سقطت دولة الموحدين (١٢٦١) وكانت تحكم بلاد المغرب كلها وتجمع عرب المغرب جميعا فى وحدة سياسية واقتصادية واحدة . وعلى

أنقاض دولة الموحدين قامت دويلات صغيرة ، وبدأ الانقسام والتنازع ، وطمعت فيها الدول المسيحية المواجهة لهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط كجنوة والبندقية ومالطة والامارات المسيحية فى الأندلس التى كانت تزحف على مابقى للمسلمين من ملك فى شبه الجزيرة . وبسقوط غرناطة انتهى ملك المسلمين فى الأندلس ، وحمل الأسبان تلك الحرب الصليبية إلى شمال إفريقية . وعجزت الامارات العربية المغربية عن الصمود للأسبان ، فلجأوا إلى أكبر قوة إسلامية ، وهى قوة السلاطين العثمانيين ، وباسم الإسلام ونصرة الإسلام تقدّم العثمانيون لمساعدة العرب فى شمال إفريقة فى كفاحهم ضدّ الأسبان ، وتقاضوا ثمن تلك المساعدة ، فكان دخول بلاد المغرب العربى فى حوزة السلطنة العثمانية .

تم دخول الجزائر فى حوزة الدولة العثمانية فى سهولة و يسر. فقد ضاق أهل الجزائر بضغط الأسبان ، فلجأوا إلى قرصانين مسلمين أخوين ليحموهم من الأسبان ، هما (عروج) و (خير الدين) . ونجح الأخوان فكوفئا بتولية عروج أميرا على الجزائر ، حتى إذا مات خلفه أخوه خير الدين بار باروس . ورأى خير الدين أن الامارات المغربية عاجزة عن الصمود للخطر الأسبانى ، وأن الدولة العثمانية أقدر على القيام بهذا العمل ، فزار الآستانة وأعلن دخوله فى طاعة السلطان العثمانى . واتخذ العثمانيون من الجزائر قاعدة لفتح تونس والقضاء على الدولة الحفصية .

كان فرسان القديس يوحنا فى مالطة من ألد أعداء الإسلام والمسلمين منذ تألفت جمعيتهم فى الأراضى المقدسة أثناء الحروب الصليبية . وكانوا من معقلهم بمالطه يشنون حربا لاهوادة فيها ضدّ سفن المسلمين وثغورهم . وطمعوا فى فتح طرابلس ، واستنجد أهل طرابلس بالدولة العثمانية باعتبارها حامية المسلمين ، ولبى العثمانيون النداء فخلصوا طرابلس من أيدى فرسان القديس يوحنا .

لاشك أن كون الأتراك مسلمين كان العامل الأكبر فى قبول العرب للحكم التركى ، وعلى الأخص إذا علمنا أن عقلية القرون الوسطى التى كانت تعتبر الإنسان فردا من جماعة دينية أولا ومواطنا فى هذا القطر أو ذاك ثانيا ، كانت ماتزال سائدة آنذاك . وكانت القوميـة والولاء القومى ، بمفهومهما العصريين غير معروفين البتة . وعلى هذا كان أبناء « الرعايا » هم الوحيدون الذين كانوا يحاولون الانفصال عن الحكم العثمانى ، ويشعرون دائما بأن هذا الحكم العثمانى إنما هو حكم أجنبى دخيل . وكانت أغلبية هؤلاء « الرعايا » تسكن الأقسام الأوروبية من الامبراطورية العثمانية .

وبالرغم من أن سيادة الترك العثمانيين فى البلاد العربية كانت طويلة الأمد أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى، فإنهم لم يستطيعوا أن يتركوا عربيا واحدا فى أثناء حكمهم الطويل . لقد استعمروا البلاد العربية سياسيا ، ويمكننا أن ندرك ماهية الاستعمار التركى إذا قارناه بالاستعمار الفرنسى فى الجزائر مثلا ، حيث بدأ الفرنسيون الإذابة والإفناء منذ أكثر من مائة سنة .

انبرى الدكتور وليد قمحاوى فى كتابه (النكبة والبناء) إلى الدفاع عن العثمانيين ، فقد برأهم تماما من (جريمة قتل الوطن العربى) إذ أنهم لم يفعلوا أكثر من أن يضموا إلى دولتهم أشلاء ممزقة، محاولين توحيدها فى ظل الخلافة العثمانية الإسلامية . وهذه الأشلاء هى دولة الموحدين العربية فى المغرب التى انحلت بسرعة عجيبة ، فأصبحت أجزاء يستقل بكل منها أمير محلى : فى تونس الحفصيون ، وفى الجزائر عدة حكام ، وفى مراكش بنو مرين ، أما الأندلس فبعضها لبنى الأحمر و بقيتها ممالك أسبانية قائمة منذ جعل العرب أسبانيا أندلسا. أما حكام مصر قبيل الفتح العثمانى فقد كانوا خليطا عجيبا من الترك والمغول والعبيد الذين كان الأيوبيون يشترونهم ويربونهم ويسلمونهم زمام الجيش والسلطة .

بل إن الدكتور وليد يذهب إلى أنه لاينبغى اتهام الأسبان والمماليك والمغول بأنهم السبب فى (إزهاق روح الوطن العربى وتمزيق أوصاله) وذلك لأنه كان مزقا متناثرة . و يرى أنه يجب علينا أن لا نتهم العثمانيين بالعدوان على هذه المزق ، لأن كل فريق منهم يحمل فى يمينه بطاقة دعوة تلقاها من أحد حكام الوطن العربى ، ترجوه تشريف البلاد والمشاركة فى تناول بعض ماعلى موائد الوطن العربى الذبيح ، وكل ما هنالك أنهم كانوا عظيمى الطمع ، فاستولوا على جميع ماعلى الموائد ، ولم يتركوا لمضيفيهم شيئا .

السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية

تذهب الغالبية العظمى من كتب التاريخ إلى تنازل آخر الخلفاء العباسيين في مصر ، المتوكل على الله ، عن الخلافة إلى السلطان العثمانى سليم الأول ، فاتح الشام ومصر ، وبهذه الصورة انتقلت الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى العثمانيين . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا التنازل تم فى القاهرة ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه قد تم فى القسطنطينية .

ولكننا نستطيع أن نؤكد أن هذه الرواية ماهى إلاّ أسطورة تكونت بعد فتح مصر ، وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير قصيرة . والأدلة على ذلك كثيرة :

ا — إن المؤرخ ابن إياس كان معاصرا لاستيلاء العثمانيين على مصر . فقد دون فى تاريخه (بدائع الزهور) كثيرا من الوقائع والأمور ، بتفاصيل وافية ولم يذكر شيئا عن أمر الخلافة . وهو يسمى المتوكل دائما بالخليفة ، ويسمى سليم أو سليمان باسم السلطان ، ولا يشير ولو إشارة عابرة إلى تبدل أمر من أمور الخلافة .

ب — لايوجد تاريخ تركى كتب فى عهد السلطان سليم إلا أن منشئات فريدون بك تضم نوعا من (اليوميات) التى تسجل مافعله السلطان سليم منذ مغادرته القسطنطينية لفتح مصر ، حتى عودته بعد الفتح إلى عاصمة ملكه . فى هذه اليوميات لاتوجد كلمة واحدة عن قضية الخلافة . رغم أن هذه اليوميات لم

تترك كبيرة أو صغيرة إلا أحصتها ، فهى تذكر المساجد التى صلى فيها سليم صلاة الجمعة ، والأشخاص الذين أنعم عليهم ، والذين أمر بقتلهم ، وأنواع الطعام التى قدمت فى مآدبه .

حـ ـ أن أقرب التواريخ العثمانية إلى عهد السلطان سليم هو المعروف باسم (تاج التواريخ) . إن هذا التاريخ يحتوى بحثا طويلا عن السلطان سليم ، ومع هذا لايذكر شيئا عن الخلافة .ومما يلفت النظر أن كاتب (تاج التواريخ) كان ابن شيخ الإسلام الذى رافق السلطان سليم خلال سفره إلى مصر . وقد دون عدة وقائع وأمور نقلا عن والده . فلو كان حدث تبدل ما فى أمر الخلافة، خلال وجود السلطان سليم فى مصر ، أو بعد عودته إلى القسطنطينية ، لذكر ذلك بكل اهتمام .

إن السلطان سليم لم يهتم بالخلافة ، ولاغرابة فى ذلك فقد كانت الخلافة فى ذلك العهد قد فقدت مكانتها منذ فترة طويلة . وكان الخليفة قد أصبح (مقام تبرك) لايتمتع بأية سلطة فعلية أو اسمية اللهم إلاّ أنه كان يدخل فى التشريفات مع القضاة الأربعة ، ويتولى مقام الخلافة بأمر يصدره السلطان المملوكى بعد مشاورة العلماء والقضاة . حتى إنه كان يقصى عن منصبه أيضاً بأمر من السلطان فى بعض الأحيان .

إن السلاطين العثمانيين لم يعيروا ـ فى بادئ الأمر ـ أمر الخلافة أى اهتمام . وعندما اهتموا بها فيما بعد وأرادوا أن يستفيدوا منها ، اختلق ساستهم ومؤرخوهم أسطورة التنازل .

ولا شك فى أن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها للبلاد العربية والبلاد الإسلامية تسهيلا كبيرا . ولإظهار قوة هذا التأثير المعنوى ، ننقل ما كتبه الزعيم الوطنى المصرى (محمد فريد) فى كتابه (تاريخ الدولة العلية العثمانية) عند حديثه عن قتل السلطان عثمان الثانى : « فأعدموا السلطان عثمان غير مبالين بهذا الجرم العظيم ، والإثم الذى مابعده إثم إلاّ الكفر المبين . فإنه إن كانت مخالفة أوامر الخليفة الأعظم تعد كفرا بنص الكتاب الشريف فما بالك بمقتله . وهنا يقف القلم ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء ، تاركا وصفها للقارئ اللبيب والمطلع الأديب لعجزى عن هذا المقام العالى . . . » .

إن فكرة الخلافة العثمانية ساعدت على استسلام العرب والمسلمين للحكم العثمانى ، وعززت هذه الفكرة (الجامعة الإسلامية) وأدت إلى تأخير نشوء فكرة (القومية العربية) .

القومية العربية تقاوم الحكم العثمانى :

منذ القرن التاسع عشر أخذت فكرة القومية تظهر للوجود بشكلها الواضح ، أولا فى أوروبا ، ثم فى الأقسام الأوروبية من الامبراطورية العثمانية. أما المناطق العربية التى كانت خاضعة للحكم العثمانى فقد استجابت لهذه الفكرة الجديدة استجابة ضعيفة بادئ ذى بدء ، ثم استجابة متعددة الأشكال ،

متفاوتة الدرجات فيما بعد . وكان أول من بشر برسالة القومية بين العرب هم أبناء « الرعايا » أى المسيحيين الذين وجدوا فى القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل وللخروج من حدود الدائرة الإسلامية إلى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا أنفسهم فى ولاء شامل .

لاشك أن مفاسد الحكم التركى العثمانى فى البلاد العربية كان دافعا للعرب المسلمين إلى الابتعاد رويدا رويدا عن (الجامعة الإسلامية) والخضوع للدولة العثمانية الإسلامية ، والاقتراب تدريجيا من قوميتهم العربية .

رأينا حكاما مسلمين لم يجدوا حرجا فى عصيان الدولة العثمانية الإسلامية ، والتحالف مع دول مسيحية . ففى أوائل القرن السابع عشر ثار الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى لبنان على الحكم العثمانى واستعان بإمارات مسيحية ، مثل توسكانا ونابلى وأسبانيا والبابوية لتعينه على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهى دول كانت الروح الصليبية لاتزال مسيطرة على علاقاتها بدول المسلمين فعزمت الدولة العثمانية على القضاء عليه ، ففر لاجئاً إلى حليفه أمير توسكانا . ونجحت الدولة العثمانية فى قتله سنة ١٦٣٥ ، ولكن اللبنانيين مازالوا يعتبرون فخر الدين بطلا قوميا كبيرا ، إذ دافع عن كيان لبنان واستقلاله ، وسعى لدعم هذا الاستقلال بالاتصال ببعض الدول الأوروبية واقتباس بعض مظاهر الحضارة الأوروبية فى بلاده .

وفى مصر ، ثار (على بك الكبير) شيخ البلد المسلم على الحكم العثمانى، وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر أمير عكا من قبل العثمانيين وأعلنوا العصيان ، ولم يجدوا حرجا فى التحالف مع الروسيا وهى دولة مسيحية . وفى العراق اعتمد داود باشا على الإنجليز فى توطيد دعائم حكمه والثورة على العثمانيين (١٨١٧ ـ ١٨٣١) .

كانت حملة نابليون بونابرت على مصر والشام من عوامل ضعف (الجامعة الإسلامية العثمانية) وظهور (القومية العربية) . قدم الفرنسيون مُزودين بمدنيتهم الحديثة التى تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادئ الديموقراطية. وتقابلوا بهذا كله مع مدنية الأتراك فكانت الغلبة للمدنية الحديثة . ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية هذه المدنية وأيقنوا أنه لاحياة لشعوب الشرق العربى إلا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقاوم الغرب بأساليبه .

كان العالم العربى قد فقد إلى حد كبير شعوره بالقومية العربية فى ظل الحكم التركى ، وذلك لغلبة الشعور بالقومية الإسلامية العربية ، فقد كان العرب جزءا لا يتجزأ من دار الخلافة الإسلامية ، وخلطوا ـ نتيجة تفشى الجهل فيهم ـ بين الإسلام والخلافة ، و بين الخلافة والسلطنة العثمانية . حتى أصبحت صلة كل قطر عربى بأشقائه من الأقطار العربية الأخيرة أضعف بكثير من صلته بتركيا .

كانت الحملة الفرنسية أول مشروع رمى إلى تكوين دولة شرقية

من الأجزاء العربية التابعة لتركيا ، وقد استغل بونابرت مقومات العروبة ، فلجأ إلى اللغة العربية فى كتابة منشوراته ولوائحه . وطبع كتبا فى تعليم اللغة العربية وهجائها بالمطابع الفرنسية المرافقة للحملة ، وشجع العناصر العربية فى البلاد فكون منها دواوينه وجعلهم أهل مشورته .

بعد الفتح العثمانى للدول العربية والإسلامية ، استأثر الأتراك بالحكم ، ولم يكتفوا بعدم اشتراك الشعوب العربية فى حكم بلادها ، بل إنهم أقصوا العرب عن مناصب الحكومة إطلاقا إذ كانت نظرية الحكم التركى أن هناك طبقتين متميزتين : طبقة الحكام الأتراك ، وطبقة المحكومين أو الفلاحين . ثم جاء نابليون إلى مصر وأعلن فكرة اشتراك الشعب فى الحكومة ، فجاء فى منشوره الذى أصدره فى الاسكندرية فى ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ : (ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر فى الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور وبذلك تصلح حال الأمة كلها) .

أنشأ نابليون ديوان القاهرة من العلماء وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة ، كما أنشأ دواوين الأقاليم . ولم يتنازل الشعب عن هذا بعد خروج الفرنسيين ، فأخذ يتدخل فى الحوادث وقاوم الولاة الظالمين وعزلهم ، وولى زعماء الشعب محمد على بشروط خاصة ، ووقف السيد عمر مكرم فى وجه استبداد محمد على .

أيقظ نابليون الشعور القومى العربى ، و بعث فكرة استقلال العرب عن العثمانيين . كانت الشعوب العربية تقاوم الحكام العثمانيين عندما يستفحل ظلمهم ، ولكنها كانت مقاومة منصبة على حوادث فردية ولم تكن ثورة قومية ترمى إلى التخلص من الحكم العثمانى . ولعل السبب فى ذلك هو أن الشعوب العربية كانت معترفة بحق السلطان بصفته خليفة للمسلمين فى حكم البلاد فلم تكن تنازع فى ذلك .

فلما قدم الفرنسيون فاتحين غازين ، وكانوا مختلفين عن أهل البلاد فى الدين والجنس واللغة، ثارت الروح القومية وشعر المصريون لأول مرة فى العصر الحديث أن كرامتهم القومية قدمست، فاستبسلوا فى الدفاع عن الوطن العربى. وكان هذا فاتحة الحركات القومية طوال القرنين ١٩ و ٢٠ .

وكما ظهرت فكرة إجلاء الفرنسيين ظهرت فكرة الاستقلال حتى عن تركيا،فتكون وفد مصر بزعامة المعلم يعقوب حنا ، وغادر البلاد للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية . ورغم أن المعلم يعقوب نفسه كان ممن مالأ الفرنسيين وكون الفرق التى تعمل بزعامته تحت إمرتهم ، إلاّ أنه وضع مشروعا للاستقلال عن تركيا ، وهى فكرة جديدة تستحق التسجيل .

من أشد الحركات العربية التى قامت فى وجه الحكم العثمانى الحركة الوهابية ، وهى حركة عربية لحماودما ، وقد قامت فى وسط البلاد العربية وفى قلب الجزيرة العربية ، وقادها قواد من صميم العرب . و إن كان الكتاب

والمؤرخون يصورونها دائما بأنها حركة دينية مذهبية . لقد أراد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب أن يحارب الدولة العثمانية فحاربها بسلاح ذلك العصر وهو الدين، فاتهم الحكم العثمانى بأنه المسئول الأول عن انتشار البدع فى العالم الإسلامى ، ودعا إلى العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى . ورأى محمد بن عبد الوهاب الزعيم الوطنى أن يدعم دعوته بالتحالف مع زعيم سياسى هو محمد بن سعود حاكم الدرعية (١١٥٧ هـ ـ ١٧٤٤ م) .

شعرت الدولة العثمانية بخطر هذه الدعوة الوهابية ، وخاصة أنها كانت تهدد انتظام الحج ، وكان السلطان يحرص دائما على أن يسمى نفسه (خليفة المسلمين) و (خادم الحرمين) ،ولذا عهد إلى سليمان باشا الكبير والى العراق بإخضاع الوهابيين ، حتى إذا فشل عهد بذلك إلى محمد على والى مصر ، فاستطاع ابنه إبراهيم أن يقضى على الدولة السعودية الأولى .

أثبتت الدعوة الوهابية قدرتها على أن تكون خلية يلتف حولها ملكٌ عربى وطنى. فقد قامت الدولة السعودية الأولى وانتشرت بفضل اعتناق أميرها الدعوة الوهابية وسعيه لنشرها فى الجزيرة العربية ، ثم قامت الدولة السعودية الثانية ـ بعد انتهاء الحكم المصرى فى الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠ ـ معتمدة على الدعوة الوهابية ، ثم قام عبد العزيز آل سعود بتأسيس الدولة السعودية الثالثة فى أوائل القرن العشرين على أساس هذه الدعوة .

ولكن كيللر ـ الكاتب الفرنسى ـ فى كتابه (القضية العربية فى نظر الغرب)

يرى أن الحركة الوهابية لا تؤدى إلى الوحدة العربية ، فيقول : تأسست الوهابية فى القرن الثانى عشر على يد محمد بن عبد الوهاب وأخذت اسمه . ودعوة محمد بن الوهاب هذه تتلخص بأنه يريد ثورة جديدة فى الإسلام ، هدفها السير على تعاليم وعقيدة النبى الأساسية ، فحظر التبغ والقهوة والميسر والخمر والغناء . وهو فضلا عن ذلك عدو لدود للأجانب ، ولذلك فالوهابية ، بقوانينها الضيقة وقسوتها ، تشكل حاجزا قويا فى وجه الوحدة العربية .

٣ — سياسة محمد على العربية

طمع محمد على ، معتمدا على ابنه إبراهيم ، فى إنشاء دولة عربية أو امبراطورية عربية قوية نواتها مصر وتجمع سائر الأقطار العربية المجاورة ، وشجع محمد على على المضى فى سياسته ضعف الدولة العثمانية .

جاء محمد على إلى مصر من مسقط رأسه فى قولة كضابط فى القوة الألبانية التى بعث بها السلطان العثمانى فى سنة ١٧٩٩ للقضاء على حملة نابليون بونابرت وكان آنئذ شابا فى الثلاثين من عمره . وقد تغلب نابليون بسهولة على هؤلاء الألبانيين ، إلاّ أن الهزيمة نفسها أفسحت المجال أمام محمد على للظهور فتولى قيادة القوة ، حتى إذا ماجلا الفرنسيون عن مصر بعد سنتين وجد نفسه على رأس جيش صغير وفى مركز ذى نفوذ وسلطة فسخر ذلك لصالحه ، وأخيرا وفى عام ١٨٠٥ استطاع أن يجعل الشعب المصرى يبايعه حاكما على مصر .

بدأ محمد على سياسة عربية بعد أن استقر الأمر له فى مصر . وتنفيذا لهذه السياسة لبى محمد على نداء السلطان للقضاء على الوهابيين بالحجاز . استمرت هذه الحروب سبع سنين وانتهت بانتصار محمد على الذى نجح فى تحرير الأماكن المقدسة ، وبدأ محمد على فى بسط نفوذه فى أنحاء الجزيرة العربية . فوصلت جيوشه إلى اليمن جنوبا وإلى الخليج الفارسى شرقا . وكوفىء محمد على من السلطان بتعيين ابنه إبراهيم والياعلى الحجاز .

لمع اسم محمدعلى فى العالم العربى وعظمت مكانته بسبب هذه الانتصارات. وكان لهـذه الحملة فى الوقت ذاته نتيجة خطيرة ، وهى أنها أتاحت لمحمد على وولده إبراهيم فرصة للاتصال المباشر بالعالم العربى وإدراك القابلية الـكامنة فيه ، وهـذا ماجعلهما ، وهما عنصر غريب تماما عن العرب ، يحلمان بإنشاء امبراطورية عربية ويطمحان أن يتم تشييدها على أيديهما .

ثم بدأ محمد على فى فتح السودان ، وكان معظم سكان شمال السودان عربا مسلمين . وبعث بحملات بحرية إلى البحر الأحمر حيث قضت على القرصنة ، وأخضعت ساحليه العربى والإفريقى لحـكمه .

ثم دعاه السلطـان لمساعدته فى حرب المورة لإخماد ثورة اليونانيين فلبى النداء آملا أن يكافئه السلطان بمنحه حكم الشام فيضمها إلى الدولة العربية المتحدة ، ولـكنه كوفىء بجزيرة كريت ، وهى جزيرة صخرية فقيرة الموارد ، فخابت آمال محمد على وعول على أن يستولى على بلاد الشام بالقوة معتمدا على قوة ابنه إبراهيم .

تمّ لإبراهيم فتح بلاد الشـام بسهولة كبيرة بعـد سقوط عكا (مارس سنة ١٨٣٢) ، فقد احتل دمشق ، وهزم الجيش العثمانى قرب حمص ثم هزمهم فى حلب ، وفى نهاية يوليو تم له الاستيلاء على بلاد الشام جميعها . وأعلن إبراهيم أن جيوشه لن تقف فى زحفها إلا عند الحد الفاصل بين المتكلمين بالتركيـة وبين المتكلمين بالعربية ، وجهر بأنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء فى الإدارة أم فى الجيش

وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ، ولذا رحب أهل الشام بالفتح المصرى ترحيبا كبيرا .

كان إبراهيم أكثر من محمد على إيمانا بالعرب وتحمسا للقومية العربية ، فقد نشأ فى مصر وعاش فترة فى شبه الجزيرة العربية ، وكان يقول: (أنا لست تركيا ، بل أنا مصرى عربى ، فلقد جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين مصّرتنى شمسها ، وغيرت من دمى ، وجعلته دما عربيا) . وسئل إبراهيم أثناء حصاره عكا : إلى أى مدى تصل فتوحاتك إذا تم لك فتح عكا ؟ فقال : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى .

تدخلت الدول الأوروبية فضغطت على محمد على حتى عقد اتفاقا فى ربيع ١٨٣٣ اعترف فيه السلطان بمحمد على حاكما على بلاد الشام اعترافا رسميا. وفى خلال السنوات التى أعقبت ذلك ، حكم إبراهيم تلك البلاد باسم أبيه إلى أن أرغمه ضغط الدول الغربية من جهة وتذمر بعض السكان من جهة أخرى على اخلائها والتنازل عن ولايتها ، وذلك فى سنة ١٨٤٠ .

كان محمد على يحلم بإنشاء دولة عربية كبرى منذ عدة سنوات ، وأصبح الحلم حقيقة بعد فتح الشام ، فقد أصبح يسيطر على أهم أجزاء العالم العربى ، فكون دولة تضم مكة والمدينة والقاهرة و بيت المقدس ودمشق ، و بدأ يحلم بضم الأجزاء العربية الباقية . بل يذهب جورج أنطونيوس فى كتابه (يقظة العرب) إلى أن محمد على كان ينوى بالإضافة إلى ذلك السعى للاستيلاء

على الخلافة الإسلامية نفسها ولم يخف هذه النية ، فقد كان يعلم أن فرنسا تحبذ قيام مملكة مستقلة ومستقرة تضم بلادا كبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية واقعة على الطرق الكبرى المؤدية إلى الشرق أو بمعنى آخر على طرق بريطانية تؤدى إلى الهند . كما أن المساشجعته فى مساعيه إذ أو فدت (الكونت بروكش أوستن) الذى قدم مذكرة فى ١٧ مارس ١٨٣٣ رسم فيها الخطوط الكبرى للمشروع الذي يقترحة ، ويتلخص هذا المشروع فى أن يتولى محمد على الخلافة وينشىء دولة عربية تضم مصر والسودان والجزيرة العربية والشام والعراق . وفهم محمد على من هذا الاقتراح أن الحكومة النمسوية تؤيده . وعلى كل حال ، فقد كان فى الفكرة نفسها ما يغرى باعتناقها . فقد كان محمد على يسيطر على البلاد المقدسة وكان شريف مكة يهابه أكثر من مهابته السلطان ، وكان السلطان مكروها عند رعاياه، المسلمين منهم والمسيحيين، وكان الجيش العثمانى ضعيفا إذا قارناه بالجيش المصرى ومعنى ذلك أن التربة كانت صالحة فى البلاد العربية لغرس الفكرة .

ظهرت عقبة كبرى فى سبيل تحقق الفكرة العربية، وهى معارضة اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا الذى عارض بعنف فكرة الدولة العربية . ورأى محمد على أن يحمل أهل الشام على المناداة بها جهرا . وكانت قد تسربت هذه الفكرة العربية إلى بلاد الشام فقبلها أهل الشام قبولا حسنا ، المسلمون منهم فى ذلك كالمسيحيين أما المسلمون فقد كان الوهابيون قد أثاروا مشاعرهم وجعلوهم يحتقرون السلطان العثمانى ، أما المسيحيون فقد كانوا يسمعون عن المعاملة

الطيبة التى يلقاها إخوانهم المسيحيون فى مصر . وكان الأمير بشير الشهابى أمير لبنان صديقا حميما لمحمد على فاستطاع أن يمهد العقول لقبول فكرة قيام امبراطورية عربية ، وطرد العثمانيين من الشام . واعتقد أهل الشام أن فتح محمد على لبلادهم يؤدى إلى تحرير العرب من الحكم التركى العثمانى .

تولى إبراهيم حكم الشام سنة ١٨٣٣ فبدأ ينشر أفكاره فى بعث النهضة العربية . وكانت جهود محمد على وابنه لخلق حركة عربية تتطلب تذليل عقبات كبيرة . فلم يكونا عربيين ، ولم يتقنا العربية ، وإن تحدث إبراهيم بها بشىء من الطلاقة ، ولذا فقدت دعوتهم القوة الذاتية . لقد كان الطموح الشخصى هو المحرك الأول لهما وكانت رغبتهما فى بعث الامبراطورية العربية ناشئة بالدرجة الأولى عن رغبتهما فى الحصول على امبراطورية ما .

لم يكن الوالد وولده متفقين تماما فى تصوير امبراطورية المستقبل ، فلئن اشتركا فى الرغبة الرامية إلى تكوين مملكة موحدة تضم المناطق العربية التى تم لهما الاستيلاء عليها وأن يُصبحا هما الاثنان ومن يأتى بعدهما من سلالتهما البيت الحاكم فيها ويتخذ أيضا لقب الخلافة إلاّ أنهما كانا مختلفين فى تقدير أهلية العرب ومبلغ المؤازرة المنتظرة منهم. أما محمد على فقد كان هدفه الاستيلاء المجرد ، فهو حين وطن نفسه على الوصول إلى الخلافة وأن يتولى حكم مملكة مستقلة كان قانعا بأن لامفر له لتحقيق هذين الغرضين من الاعتماد على نوايا العرب الحسنة نحوه ، والحصول على تأييدهم ، ولكنه لم يشعر نحوهم بعطف

حقيقى ، كما أنه لم يتكلم لغتهم . كان يتصور دعائم الحكم فى امبراطوريته قائمة على سواعد أتباعه من الأتراك والألبانيين ولم يتصور العرب فيها إلاّ رعايا خاضعين له .

أما إبراهيم فكان هدفه أبعد من هدف أبيه ، فقد عمل على نهضة العرب حتى تصبح هذه النهضة أساسا قويا تقوم عليه الامبراطورية العربية المنشودة . وكان قدأتى إلى مصر شابا فنشأ فى محيط عربى ، وعاش فترة فى شبه الجزيرة العربية خبر فيها العرب . ويقارن جورج أنطونيوس فى كتابه (يقظة العرب) بين الوالد وولده ، ويرى أن سبب اختلاف آرائهما هو اختلاف الفكر والمزاج ، فإن عبقرية محمد على كانت من النوع الذى يخلق الممالك ، بينما كان إبراهيم يتحلى بالحكمة التى تحتفظ بتلك الممالك .

نفذ إبراهيم سياسته العربية ، لقد كانت منشوراته التى يوجهها إلى الجيش تشير دائما إلى أمجاد العرب ، كما اهتم إبراهيم بالنواحى الاقتصادية والإدارية والتعليم والقانون حتى يرفع من شأن العرب من جهة ، وحتى يشعر أهل الشام بالفرق الشاسع بين الحكم المصرى العادل والحكم العثمانى الجائر .

ولكن سرعان ما انهار الحكم المصرى فى الشام نتيجة تدخل الدول الأوروبية التى أزعجها انتصارات المصريين الباهرة على العثمانيين وتقدمهم فى آسيا الصغرى ، وكان كثير من الدول الأوروبية يرون أن من الخير لهم بقاء الدولة العثمانية الضعيفة ، كما عارضت فكرة إنشاء دولة عربية موحدة

على حساب الدولة العثمانية . فقد كانت الروسيا تخشى أن يتبع قيام هذه الدولة العربية امتداد أطماعها فيما بعد إلى سائر أجزاء الدولة العثمانية ، فيؤدى هذا إلى قيام دولة فتية على أنقاض الدولة العثمانية تحول دون تحقيق أطماعها فى المضايق. أما انجلترا فقد خافت من قيام قوة جديدة تسيطر على أهم الطرق الموصلة إلى الهند . واتفقت الدول على أن ترغم محمد علىّ على قبول حكم مصر وراثيا ، ونشرت الثورة فى ربوع الشام ، ثم أوقعت الهزيمة بالجيش المصرى ، وقبع محمد على وإبراهيم فى مصر ، وضاعت آمالهما فى إنشاء دولة عربية كبرى .

كانت هناك عدة عوامل أدّت إلى فشل الفكرة العربية فى عهد محمد على وإبراهيم : أولها أن صاحبى فكرة إقامة الدولة العربية لم يكونا من العرب . وثانيها معارضة بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ، فقد كتب بالمرستون إلى الوزير البريطانى المفوض فى نابلى فى ٢١ مارس ١٨٣٣ : « إن هدف محمدعلى الحقيقى هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التى تتكلم اللغة العربية . وقد لايحوى هذا المشروع ضررا ما فى حدّ ذاته، ولكنه سيؤدى إلى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه . وفضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر إحلال ملك عربى محل تركيا فى السيطرة على طريق الهند » .

أما العامل الثالث فهو فقدان التضامن القومى فى العالم العربى ، وعدم نمو الوعى العربى القومى والاجتماعى . ووقف التعصب الدينى عقبة فى سبيل اتحاد العرب ، وكان هذا التعصّب واضحا فى بلاد الشام، إذ انقسم أهلها إلى طوائف

عدة ، وتمسكت كل طائفة بتقاليدها الخاصة الاجتماعية والدينية ، ولم تكن الوطنية بمعناها القومى معروفة آنئذ . كانت هذه الطوائف مشتركة فى اللغة والعادات والعنصر ، متحدين فى كرههم الحكم التركى ، راغبين فى التخلص منه ، إلّا أن أمانيهم فى الحرية كانت ناشئة عن دوافع مختلفة ، كما كان ترحيبهم بمقدم إبراهيم يستند إلى عوامل ذاتيّة ، أما المسلمون فقد رحّبوا بقيام امبراطورية عربية،لاعتقادهم بأن عودة الخلافة إلى العرب ستزيد فى سيطرتهم. ورحب المسيحيون بقيامها لأن محمد على كان متسامحا مع نصارى مصر فمنّوا نفوسهم بأنهم سيتمتعون بهذه المساواة والتسامح إذا تمّ له فتح الشام .

عملت الحملة الفرنسية على نهضة الثقافة العربية ، ثم أكملت هذا العمل العظيم الجمعيات التبشيرية المسيحية . ونتج عن هذا كله اهتمام العرب بتراثهم القومى ، ممّا أدّى إلى بعث القومية العربية . وساعد على بعث القومية العربية . وساعد على بعثها سوء الحكم العثمانى الإسلامى ، وخاصة فى عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) وقد تميّز هذا العهد بالاستبداد وكبت الحريات .

وفى مصر ، فى عهد الخديو إسماعيل ، تأسست (الجمعية العلمية الشرقية) من أعضاء من جميع البلاد العربية وكانت مهمتها البحث العلمى، وإنارة أذهان أبناء العرب ، وكان الأدباء والشعراء سفراء بين الأقطار العربية ، مثل الشاعر المصرى إبراهيم مرزوق،والشاعر اللبنانى إبراهيم اليازجى، والكاتب السورى

أديب إسحق . كما كانت بعض الجمعيات الأدبية تعمل جادّة فى سبيل النهضة الأدبية العربية مثل (جمعية زهرة الآداب) التى تأسست فى بيروت سنة ١٨٧٣. كما كان للأزهر يد فى الصلات الأدبية بين بنى العروبة حيث هو مثاب اللغة والدين معا. ثم كان للروح القومى والعنصرى الذى ظهر فى أوروبا، والاحتكاك المتجدد بين الشرق والغرب أثر عظيم فى تنبيه الأفكار فى مصر وجيرانها من الأقطار العربية إلى إحياء قوميتها .

٤ — الجامعة الإسلامية والقومية العربية

انهارت الدولة المصرية العربية التى كونها المصريون — على عهد محمد على — فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بسبب مقاومة العثمانيين وإصرارهم على تقييد سلطة ولاة مصر . كما قضى العثمانيون على حكم المماليك فى العراق (١٨٣١) ، وحطموا الأسرة القرامانية فى طرابلس (١٨٣٥) .

رأى السلاطين العثمانيون أن يقووا قبضتهم على العالم العربى بحيث تظل الولايات العربية خاضعة للحكم العثمانى إلى الأبد . واتبعوا فى سبيل ذلك وسيلتين : الأولى الإصلاح ، والثانية الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

بدأت حركات الإصلاح فى تركيا فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) واتجهت فى أول الأمر نحو إصلاح الجيش بإدخال النظم الأوروبية الحربية الحديثة ، ولكن الانكشارية وقفت عقبة فى سبيل الإصلاح وأرغموا السلطان على التنازل عن العرش . ثم تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء تماما على الانكشارية ، وكون جيشا قويا استطاع أن يقوم بأعمال حربية عظيمة فى قتاله الوهابيين فى نجد ، واليونانيين فى المورة ، ثم قتال محمد على . ثم أصدر خلفه وابنه السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) منشور (الكلخانة) وفيه يؤمن جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف قومياتهم

وأديانهم ، على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، ثم أصدر السلطان عبد العزيز (التنظيمات الخيرية) .

وخلاصة الإصلاح : تنظيم التعليم ، وإنشاء مدارس عالية ، وتنظيم القضاء ، وإنشاء محاكم تجارية ومختلطة ، وتنظيم شئون التجنيد ، وتنظيم ميزانية الدولة ، والشئون الإدارية ، وحددت اختصاصات الولاة وكبار الموظفين بحيث يرتبطون جميعا بالحكومة المركزية .

لكن حركات الإصلاح لم يكتب لها النجاح التام ، لعدم اقتناع السلاطين بها وحرصهم على الاحتفاظ بسلطتهم المطلقة ، بجانب العقبات التى وضعتها العناصر الرجعية كالعلماء وكبار الموظفين ، بجانب الصعوبات المالية ، واستمرار ثورات الشعوب المسيحية التابعة للدولة ، واشتداد الضغط الأوروبى على الدولة العثمانية وولاياتها .

زادت أطماع الدول الأوروبية فى الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الطوائف مما أضعف هيبة الدولة العثمانية ، مثل أطماع الفرنسيين فى سوريا ولبنان وشمالى إفريقية ، والانجليز فى مصر والسودان والعراق والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، والألمان فى استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والإيطاليين فى ليبيا .

ماذا كان موقف العرب من الإصلاح ؟

رأى الأتراك أن الطريق إلى الإصلاح هو توطيد نفوذهم فى الولايات العربية ، بينما كان العرب يرون أن الإصلاح هو إحياء الروح الوطنية و بعث الروح القومى والتغنّى بأمجاد العرب وفضلهم على الإسلام ، و إحيـاء التراث العربى . كما رأوا أن يسخّر الإصلاح لتحسين معيشة العرب والاهتمام بالأحوال الاقتصادية والقضاء على الفساد الإدارى . و بدأت جمعيـات عربية تطـالب جهرا بالإصلاح ، وألصقت نشرات فى دمشق مطلعها :

يادولة الترك اتركى عنـ ـك العناد و باشرى الإصلاحا

وفى خلال حركات الإصلاح ،لم تتوقف الدول الأوروبية عن مدّ نفوذها فى البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتهـا . وكانت المدارس الأجنبية تؤسس فى المدن والقرى المسيحية فتجذب أبناء العرب غـير المسلمين . وقد وجـدت اللغة العربية موئلا فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين . وذلك لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحـكومية ، ولغة التعليم فى هذه المدارس كانت اللغة التركية .

إن حركات الإصلاح المختلفة لم تغيّر تغيّرا مذكورا مواقف كل من المسيحيين والمسلمين فى البلاد العربية نحو الدولة العثمانية : ظل المسلمون يعتبرون

الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها لأنها دولة الخلافة الإسلامية . وظل المسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم ، لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوروبية ، لأنها تحميهم فى كثير من المناسبات ، حتى إنها تقدم لهم بعض المساعدات . فكان على فكرة القومية العربية أن تتغلب على هذين الاتجاهين فى وقت واحد. كان عليها أن تحول أنظار المسلمين عن الدولة العثمانية وأنظار المسيحيين عن الدول الأوروبية ، لكى تجمع كلمتهم حول العروبة التى تستمد قوتها من اللغة والتاريخ .

حدثت فى عام ١٨٦٠ حادثة خطيرة أيقظت الروح القومية العربية ففى ربيع هذه السنة ، قام الدروز بهجوم على جماعات من النصارى فى جنوب لبنان وقتلوا عددا كبيرا منهم ، ووقف الجنود الأتراك ، موقف المتفرج والواقع أن هذه الأحداث كان يشعلها الرعايا الأتراك نتيجة التعصب الدينى الذى كان قد خلفه الاستعمار التركى وعمل على إذكائه بين الطوائف الدينية فى مستعمراتها . وسرت موجة البغضاء إلى جهات أخرى ، ففى يوليو من نفس السنة هاجم مسلمو دمشق حى النصارى وذبحوا عددا منهم ، وبلغ عدد القتلى فى لبنان ودمشق أحد عشر ألفا . واحتجت الدول الأوروبية ، وثارت فرنسا وأرسلت حملة برية نزلت فى بيروت ، وضغطت فرنسا على السلطان فأصدر فرمانا يجعل لبنان متصرفيّة مستقلة يحكمها عثمانى مسيحى

يعيّنه السلطان بموافقة الدول الأوروبية ويعاونه مجلس يمثل جميع الطوائف الدينية . هـذه المذابح أيقظت العرب ، فأدركوا أنهـا وليدة التعصب الطائفى الذى يغذّيه الجهـل ، كما هبّ بعض زعماء العرب يدعون إلى تحرير الوطن العربى من الحـكم التركى . وكان هؤلاء من تلاميـذ اليازجى والبستانى ، وكانوا من أبناء الجيل الأول الذى نشأ على دراسة الثقافة العربية القديمة . وهكذا بذرت بذور الفـكرة الوطنية فـكانت ثمرتها حركة عربية وقومية ، لا طائفية .

خابت آمال العرب فى حركات الإصلاح على الطريقة التركية ، ممّا أدى إلى توتر العلاقات بين العرب والأتراك . فرأى السلطان عبد الحميد أن يلجأ إلى طريقة جديدة تربط العرب بالأتراك ، ألا وهى (الجامعة الإسلامية) .

كانت الوحدة الإسلامية فى ذلك الوقت ، وقبل ظهور فـكرة الجامعة الإسلامية، تقوم على ركنين هامين : الحج إلى الأماكن المقدسة إلى الحجاز ، والخلافة الإسلامية . أما الحج فهو بمثابة مؤتمر إسلامى سنوى يضم المسلمين من جميع الأنحاء . أما الخلافة فقـد كانت النواة التى تجمع المسلمين حولها ، ولـكنها لم تعد قوية كما كانت أيام الأمويين والعباسيين ، ولـكن السلاطين العثمانيين اعتبروا أنفسهم دائمـا خلفاء المسلمين وخاصة فى وقت ضعف الدولة العثمانية .

وفى منتصف القرن ١٩ تعرّض العالم العربى والإسلامى للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، واستولت الروسيا على القوقاز ، وسيطرت انجلترا على الهند ، وهولندة على أندونسيا . وخاف المسلمون أن يسيطر الأوروبيون على العالم الإسلامى جميعه ، ولذا فكّر المسلمون فى جمع كلمتهم للوقوف أمام التيار الأوروبى ، فنشأت فكرة الجامعة الإسلامية .

ساعد على ظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، ظهور السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس التى قامت عليها فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد انتقل بين الأقطار الإسلامية المختلفة وكانت تعاليمه سببا لاضطهاده .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى كابل بأفغانستان ، وتلقى علومه بالهند ، وحين عاد إلى بلاده كان هناك صراع عنيف بين زعيم يؤيده الإنجليز يسمى شير على ، وزعيم وطنى يدعى محمد أعظم خان ، فوقف جمال الدين إلى جانب الزعيم الوطنى ولكن هذا الزعيم سرعان ما هزم فآثر جمال الدين النجاة فغادر بلاده إلى مصر حيث قام بالتدريس فى الأزهر وتتلمذ عليه كثير من تلاميذه الذين نادوا بتعاليمه فيما بعد . وأمضى فى مصر ٨ سنوات بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ ولكنه سرعان ما أبعد عن مصر ، فغادرها إلى تركيا فى وقت ظهرت فيه الحركة الدستورية فلعب دورا كبيرا فى نشر المبادئ الدستورية ،

ولـكنه أخرج من تركيا فعاد إلى مصر مرة أخرى فى سنة ١٨٨٠ ، حيث كان له أثره فى الحركة الفـكرية التى ساعدت على قيام الثورة العرابيـة ، وقد أوعز الإنجليز إلى الخديو توفيق بإبعاده فأخرج من مصر سنة ١٨٨٢ . وفى سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين إلى أوروبا حيث زار لندن وباريس وبعض عواصم غرب أوروبا ، وفى ميونيخ بألمانيـا تقابل مع شاه فارس (ناصر الدين) فدعاه إلى طهران حيث أكرم وفادته ، ولـكن آراءه التحريرية أحنقت عليه الشاه فطرده من بلاده ، فسافر مرة أخرى إلى لندن . وفى سنة ١٨٩٢ دعاه السلطان عبد الحميد لينزل ضيفا عليـه فى الآستانة ، فقد أراد أن يتخذه رسول الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التى رأى السلطان أن يستغلها لتحقيق سياسته فى إحياء الخلافة العثمانية وجمع كلمة المسلمين حولها .

قامت دعوة جمال الدين الأفغانى على أساسين :

أولهما : إصلاح حال المسلمين وتلقينهم المدنيّة الحديثـة .

وثانيهما : تحرير الشرق من سيطرة الغرب ولفت أنظار المسلمين إلى ما وصلوا إليه من ضعف وتأخر نتيجة عدم مسايرتهم الحضارة والمدنية الحديثة حتى طمع الأجانب فى بلادهم . ودعا جمال الدين المسلمين إلى الاتحاد ليقفوا فى وجه الاستعمار .

وهكذا كان السيد جمال الدين يدعو إلى وحدة شرقية إسلامية عامة . تكفل

لأمم الشرق استقلالها وحريتها ، وخاصة أن الدولة العثمانية لم تعد قادرة على حماية ولاياتها الإسلامية من أطماع دول أوروبا .

رأى السلطان عبد الحميد ، الذى تولى الحكم سنة ١٨٧٦ ، أن يستفيد من ظهور فكرة إنشاء الجامعة الإسلامية . ففى الداخل قام بعض المصلحين بزعامة مدحت باشا يطالبون بالدستور. وفى الخارج كانت روسيا تهدد بالحرب تؤيدها بعض الدول الأوروبية ، بجانب ثورات البلقان المستمرة .

ولكن السلطان عبد الحميد ما لبث أن غيّر سياسته ، فعزل مدحت باشا ثم نفاه ، وأوقف العمل بالدستور ، وفض البرلمان فى ١٤ فبراير ١٨٧٨ ، وقيّد الحريّات ، وظل يحكم ٣١ سنة حكما استبداديا . وبدأ يفكر فى تقوية مركزه عن طريق (الدين) ، فعاد إلى سياسة (الجامعة الإسلامية) ، ورأى إحياء الخلافة حتى يعتبره المسلمون حامى الإسلام ضدّ الاستعمار الأوروبى ، فدعا الأمم الإسلامية إلى الالتفاف حول الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة التى تحمى الإسلام والمسلمين . وأرسل دعاته إلى جميع البلاد الإسلامية ، وخاصة التى هددتها الأطماع الأجنبية مثل مصر والهند وأفغانستان والملايو وغيرها .

لم تكن سياسة عبد الحميد قائمة على تبنى أفكار جمال الدين الأفغانى ، بل كانت فى جوهرها محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد السلطة الزمنية فى الدولة العثمانية بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين على نطاق أوسع

كانت الدول الأوروبية تعترف بأن السلطان العثمانى هو فى نفس الوقت خليفة المسلمين منذ قرنين من الزمن . ولكن بمرور الوقت طغت السلطة الزمنية على السلطة الدينية ، حتى فقد لقب الخليفة قوته ومغزاه . رأى عبد الحميد أن يقوى مركزه كسلطان بأن يعيد إلى الخلافة مهابتها الأولى ، بإقناع العالم بأن الخلافة والسلطنة شىء واحد وأن يتخذ الخلافة وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية. وهذا جعل الكثيرين يظنون بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين الأفغانى ، ولكنها فى حقيقة الأمر صلة سطحية غير حقيقية .

نادى عبد الحميد بأن سلطته الزمنية تستند إلى سلطته الدينية ، فهو ظل الله على الأرض ، وأمير المؤمنين ، وخليفة النبى ، وخادم الحرمين الشريفين . وبذلك اكتسب احترام رعاياه المسلمين . وفى الخارج ، كانت سياسته الإسلامية ترمى إلى تقوية مركز الدولة العثمانية ، بأن يكتسب إجلال الملايين من المسلمين المقيمين خارج مملكته والتابعين لبريطانيا وفرنسا وروسيا .

احاط عبد الحميد حياته الخاصة بإطار من التقوى والتقشف ، فكان يقوم بالفروض الدينية على أكمل وجه ، والتف حوله عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين ، وأنشأ معهدا دينيا لتخريج الوعاظ الذين بعث بهم إلى جميع أرجاء العالم الإسلامى ينادون بعبد الحميد خليفة المسلمين . ونجح عبد الحميد فى أن يفوز بتأييد شريف مكة فنادى به خليفة وسط الحجاج ، وسخّر عبد الحميد الصحافة لتأييد هذه الدعوة .

سياسة عبد الحميد العربية :

وبجانب سياسة عبد الحميد الإسلامية كانت له سياسة عربية . فقد أرسل دعاته إلى الأقطار العربية ليقنع العرب بأن الخلافة هى أملهم الوحيد فى النجاة من الأطماع الأجنبية وأن الجامعة الإسلامية هى طريق النجاة . وكان لهؤلاء الدعاة مهمة سريّة قاموا بها ، وهى نشر روح الفرقة والنزاع بين أمراء العرب والقبائل . وكان عبد الحميد يدعو إليه بعض الأمراء ويستضيفهم فى الآستانة ويحيطهم بأسباب الترف والترحيب ثم يمنعهم من العودة إلى بلادهم ، كما فعل مع الشريف الحسين بن على ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على الحجاز ، فقد مكث فى الآستانة خمسة عشر عاماً ، ولم يعد إلّا بعد عزل عبد الحميد سنة ١٩٠٨ .

تودّد عبد الحميد إلى العرب عن طريق الاهتمام بمؤسساتهم الدينية والعلمية ، والتبرع لها بأموال وفيرة ، كما اهتم بإصلاح الحرمين والعناية بالأماكن المقدسة ، كما عيّن العرب فى الوظائف الكبرى ، وشكل فرقة وعهد إليهم بأمر تشكيل وتوجيه صنائعه العاملين على مكافحة الاتجاهات الوطنيّة عند العرب ، فنال بعض هؤلاء حظوة كبرى لدى السلطان جعلتهم قبلة أنظار رجال القصر ، والراغبين فى الحصول على امتيازات اقتصادية فى البلاد ، ووزراء الدولة ، بل والصدر الأعظم نفسه .

كان عزت باشا العابد ، وهو عربى شامى ، من المغامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس ، وقد قضى ثلاث عشرة سنة (حتى سقوطه سنة ١٩٠٨) فى خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان ، فاستطاع خلالها أن يصبح أقوى موظف فى المملكة . وأصبح عزت باشا هو المحور الذى تدور حوله سياسة عبد الحميد العربيّة ، كما أنه كان الموعز إليه ببناء سكة حديد الحجاز .

نجاح الجامعة الإسلامية :

كانت زيادة الأطماع الأوروبية فى العالم الإسلامى والعالم العربى عاملا هامّا فى نجاح الجامعة الإسلامية ورحّب بالفكرة زعماء عرف عنهم الوطنية مثل مصطفى كامل الزعيم المصرى ، فقد كتب يقول : « إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شىء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية ، ولأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمى المسلمين فى الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة ، فمملكة الخلافة الإسلامية هى فى الحقيقة مملكتنا وقبلتنا التى إليها نلجأ ونحوها نتجه) .

ساعد على انتشار فكرة الجامعة الإسلامية تقدم طرق المواصلات ، ونهضة الصحافة فى البلاد الإسلامية والعربية التى لعبت دورا كبيرا فى نشر مبادئ جمال الدين الأفغانى . كما لعبت عوامل اقتصادية هامة دورا كبيرا فى

نجاح الجامعة الإسلامية . فقد كانت الأطماع الاقتصادية الأجنبية تسير جنبا إلى جنب مع الأطماع السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار الإسلامية رؤوس الأموال الأجنبية ، واستثمر الأجانب مرافقها ، وأدى الاستعمار الاقتصادى إلى استعمار سياسى ، ورأى المسلمون أن الجامعة الإسلامية تخلصهم من الاستعمارين على السواء .

استمر السلطان عبد الحميد فى تنفيذ الجامعة الإسلامية بكل الوسائل الممكنة . ومن أبرز هذه الوسائل مدّ الخطوط الحديدية ، وكان يهدف إلى توطيد نفوذه فى أطراف الدولة التى لم تخضع لسلطانها إلّا خضوعا اسميا ، وربط الولايات التى بدأ فيها الوعى القومى بعجلة الدولة العثمانية ، مثل سوريا والعراق وكردستان والحجاز ، وإجبار هذه الولايات على الاندماج فى الدولة والاشتراك فى الدفاع عنها بتقديم الرجال والأموال .

بدأ السلطان عبد الحميد فى تنفيذ سياسة مدّ الخطوط الحديدية بمدّ خط حديدى من دمشق إلى المدينة ، وكان ينوى مدّه إلى مكة ، بدلا من طرق القوافل القديمة . وكان الغرض الظاهر خدمة الحجاج وتسهيل الحج ، بينما رمى عبد الحميد إلى أهداف سياسية وعسكرية . فمن الناحية السياسية خلق المشروع فى أنحاء العالم الإسلامى حماسة دينية كبيرة ، فقد طالب عبد الحميد المسلمين بالتبرع للمشروع فانهالت التبرعات ، وتبرع هو بمبلغ كبير ، وخصم عشرة فى المائة من مرتبات الموظفين ، وغطت التبرعات ثلث النفقات ،

ونال عبد الحميد رضا المسلمين . أما الأغراض العسكرية ، فقد أراد عبد الحميد تسهيل نقل الجيوش إلى الجزيرة العربية ، وخاصة الحجاز واليمن حتى يضمن استمرار خضوعها للدولة العثمانية .

وصل الخط إلى المدينة المنورة فى أغسطس ١٩٠٨ ، ثم أدرك الشريف الحسين بن على الأهداف السياسية والعسكرية الحقيقية فبدأ يناهض المشروع، حتى إذا قامت الحرب العظمى الأولى اتفق الحسين والإنجليز على تخريب الخط الحديدى .

استفاد العرب فائدة عظمى من مد سكة حديد الحجاز ، ولكن فائدة العرب لم تخطر ببال السلطان عبد الحميد الذى هدف إلى مصلحته الخاصة فقط . فإن هذا الخط قد سهل أسباب الانتقال من مكان إلى آخر ، وساعد على سريان الأفكار التحررية فى بلاد العرب ، ولعب الخط الحديدى دورا كبيرا فى توجيه الحركه العربية ، و بعث القومية العربية .

كتب السفير البريطانى فى القسطنطينية فى تقريرة السنوى لعام ١٩٠٧ مايلى : « إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة فى الموقف السياسى العام ، أهمها خطة السلطان الماهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الإسلامى ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعورة الدينى وغيرته الدينيه ببناء سكة حديد الحجاز التى ستمهد الطريق فى القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، و بهذا تفتح له

أبواب الحياة الأخرى، وما تحويه من جنة ونعيم . وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثيل ، فباتوا بنتيجة هـذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادى الذى قد لانجد فى جميع أدوار التاريخ مايحاكى شدته . وهكذا أصبحت إرادة السلطان قانونا فى البلاد ، فإذا ما كتب لمسلم بائس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسى من جانب الحكومة أعلن شكواه من الموظفين دون أن ينسب للخليفة أى عمل سىء » .

كان سقوط السلطان عبد الحميد بعد عزله فى سنة ١٩٠٨ نذيرا بموت فكرة الجامعة الإسلامية التى حمل لواءها فترة طويلة . وفى نفس الوقت ، ساعد الحكم الحميدى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) الذى تميز بكبته للحريات والاستبداد والظلم ، على نمو الشعور القومى عند العرب كما سنرى بعد قليل .